مفهوم الأدب الإسلامى

إن اللغة العربية من أغزر اللغات أدباً، وهى لغة ممتدة، ولا يقصر امتدادها على الخمسة عشر قرنا، بل إن امتدادها موصول ومتوال، ولم تنسحب عن المجال الأدبى، بيد أنه قد اعتراها فى عهود متباينة ضعف لأسباب متغيرة، وأحوال طارئة، وكان الإسلام أقوى وارد على اللغة العربية وآدابها، وقد تلقاه الأدب وحمله، بل وكان به زعيما، واحتمل مسئولية عرضه وتقديمه. فقد كان رسول الإسلام محمد – ﷺ – أكثر أهل هذه اللغة وآدابها قوة وإجادة، والسر فى ذلك تعدد منابع ثقافته، التى نفهمها من خلال الحوار الذى دار بينه وبين الإمام على بن أبى طالب – رضى الله عنه – حين جاءه وفد من (بنى همدان) وتحدث معهم، فقال له على – رضى الله عنه –: يا رسول الله، نحن بنو أب واحد وأم واحدة، ونراك تكلم الوفود بلهجات لا نعرف أكثرها. فقال له الرسول عليه السلام: أدبنى ربى، فأحسن تأديبى، بيد أنى من قريش، وربيت فى بنى سعد. وقريش وقبيلة بنى سعد من أفصح العرب.

الشعر الإسلامى

وعلى الرغم من أنه عليه السلام لم يقرض الشعر. قال تعالى: ﴿ **وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ** ﴾[1].

إلا أنه كان مجيدا لفهم الشعر، ومتذوقاً لجماله ومحاسنه، واستمع للشعراء،

---

(١) سورة يس، الآية ٦٩.

وأجازهم عليه، فقد روى أن رسول الله – ﷺ – كان قد أهدر دم (كعب بن زهير)، وبلغ كعبا ذلك؛ فصنع قصيدته الشهيرة، وهرع إلى نبى الإسلام، وقد دخل عليه متلثما، وقال له: يا رسول الله أتعرف كعباً؟ قال له: لا. فقال كعب: ما تفعل به لو جاءك معتذرا، أتعفو عنه؟ قال نبى الرحمة: أعفو عنه. وبذل له الأمان؛ فأماط كعب اللثام عن وجهه، وقال له: أنا كعب، ثم أنشده قائلا:

بانت سعاد فقلبى اليوم متبول   متيم إثرها لم يفد مكبول

وما سعاد غداة البين إذ رحلوا   إلا أغن غضيض الطرف مكحول

ثم مدح الرسول عليه السلام بقوله:

إن الرسول لنور يستضاء به   مهند من سيوف الله مسلول

ثم مدح الأنصار والمهاجرين، واعتذر للرسول عليه السلام، وطلب منه ألا يصدق قول الوشاة فيه فنراه يقول:

لا تأخذنّى بأقوال الوشاة   ولم أذنب ولو كثرة فىّ الأَقاويل

ثم نرى رسول الله عليه السلام يعطيه عباءته مكافأة له وجائزة لشعره. وأراد معاوية بن أبى سفيان أن يشتريها منه، فتأبى عليه ذلك، ثم اشتراها من ورثته بعد موته بثلاثة آلاف درهم. والإسلام لم يكن دينا مقصورا على العبادات، بل إن الإسلام اتسع مثل اتساع الإنسان، وامتد مثل امتداد حياته، ولم يتعارض إلا مع ما يتعارض مع مصلحة الحياة الإنسانية ومع ذوقها الجميل، فالإسلام لا يعارض إلا أعمال الهدم والفساد والتخريب، والإخلال بما يكون بصالح الإنسان وإنسانيته، فالعمل الأدبى لم يجد صعوبة فى مسايرة الإسلام، وتحقيق أهدافه فى تصوير جوانب الحياة التى تتواءم مع الإسلام.

والخلاف بين الأدب الإسلامى وغيره من أجناس الأدب، يجئ فى رعاية مصلحة الحياة الإنسانية وعدم رعايتها، حيث إن الأدب الإسلامى يرى مجالات

العمل فى الحياة والسكون، ويميز بين اللائق بإنسانية الإنسان، وغير اللائق بها، فهو أدب ملتزم فى هذا المعنى، ولكنه ملتزم بالمعنى الصالح، لا بالجمود والتصليد، أما الأدب غير الإسلامى، فهو لا يبالى بمجالات العمل فى الكون والحياة، ويدخل فى كل مكان، مثل البهيمة الهاملة، ترعى فيما تشاء ولا تفرق بين الصافى والعفن، والطيب والخبيث، ولا تبالى بالفرق بين المراعى الفائحة، والقاذورات النتنة.

الأدب الإسلامى لا يحب هتك العورات، ولا إثارة المزابل إلا فى نطاق هادف محدود. أما الأدب غير الإسلامى، فلا يبالى أين وقع؟ وماذا أفسد؟ بل إنه حيثما يجرد نفسه من الالتزام، يرى أحب مجالات عمله كل صورة مثيرة للعواطف، وكل معنى يغذى النزوات، مهما أتى به فى إثره من فساد وانهيار، وهذا هو موضع الخلاف بين الأدب الإسلامى وغير الإسلامى.

الأدب يتلقى روحه وهدايته من الإسلام، ومن حياة نبى الإسلام، والأدب غير الإسلامى يتلقى روحه وإرشاده من هوى الإنسان، وحياة كل هائم من الحيوان. وليس صحيحا أن الأدب بعد التزامه بالإسلام يصبح محدوداً وقاصراً، لأننا حينما نشطب جانب الفساد والقبح من الحياة، فالذى يبقى بعده فى الأدب هو واسع وكثير ومتنوع الجوانب، ومختلف الصور والأشكال، ولن يشعر الممارس له أى قصور فيه لقضاء حاجته من الأدب، بل إن ما يجده يخدمه فى كل ما يعينه فى حياته. فقد انتظم الأدب الإسلامى على الشعور بالألم والسرور، والسخط والرضا، والغضب واللطف، والبكاء والضّحك، والكراهية والحب، والجد والمزاح، والشقاء واللذة، والعقل والوجدان والحكمة واللعب، كما يصور سلوك الصديق مع الصديق، وسلوك الرجل مع المرأة، كما يصور انفعال الرجل فى الأحداث وشعوره للعواطف، وتأثره بكل مؤثر، واستجابته لكل ظاهرة مسترعية للانتباه، وهو يشتمل على التاريخ والسيرة، والقصة والرسالة، والخطبة والحوار، والوصف والتصوير، وأيضا يشتمل على التعبير المؤثر الجميل. وهو نثر سلس وشعر رائع، وصور زاهية للأسلوب الأدبى، وهو تصريح وعتاب، وتطريب وإمتاع، وبيان وإفهام.

إنه مرآة كلامية للحياة الإنسانية فى أحوالها النفسية والسلوكية، بيد أنه يتجنب فى كل ذلك القذارة والفساد، والدليل على ذلك سنة رسول الله - عليه الصلاة والسلام - التى غطت جوانب الحياة بأسرها، ففيها شئون وشجون ذات اتصال بالأحوال الفردية، وبعلاقة الرجل مع زوجه، والصديق مع صديقه، والمواطن بجاره المواطن، والخصم بخصمه، والعدو مع عدوه، وفيها الحديث عن النفس والمجتمع والحياة.

هذه خامات الأدب الإنسانى البليغ. وحيث الإسلام ينتظم كل ذلك، فالحديث البليغ عن كل هذه الأمور يستأهل أن يدعى أدبا، بل وأدباً عظيما، ولاصطباغه بالصبغة الإسلامية، يستحق أن يسمى أدبا إسلامياً، لأنه أدب يمثل الحياة الإسلامية، أو هو إسلام يمثل الحياة.

ويمكنك التفريق بين النظرة الإسلامية والجاهلية للحياة، وسريانها فى الأدب. ودلالتها على اختلاف الأدب الإسلامى عن غيره، كى تتبين كلا الأدبين من هذه الكلمة السائرة فى الجاهلية، وهى: (انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً)، فقد كان مفهومها الجاهلى نصرته، دون نظر إلى صواب عمله، أو خطئه، ورفض رسول الإسلام هذا المفهوم الفاسد، ونهى عن استخدامه، وأرشد إلى المفهوم الإسلامى، وهو نُصْرة المسلم على أساس الحق، لا على أساس القرابة والنسب، وفسره عليه السلام لصحابته - رضى الله عنهم - بأن نصرة الظالم منعه من الظلم، وبذلك فرّق - عليه السلام - بين المفهوم الجاهلى للفظه، والمفهوم الإسلامى لها. ومثال آخر يدل على الشخصية الإسلامية للأدب فى الحياة، هو بيت للشاعر المخضرم (النابغة الجعدى)، حيث يقول:

وإنّا لقومُ ما نُعَوِّد خيلنا	إذا ما التقينا أن تحيد وتَنْفرا
ونذكر يوم الروع ألوان خيلنا	من الطعن حتى تحسب الجون أشْقَرا.

وليس بمعروف لنا أن نوردها ... صحاحاً ولا مستنكراً أن تُعَقَّرا

بلغنا السماء مجدُنا وسناؤنا ... وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرا

وفى رواية عبد الله بن جراد:

علونا على طُرِّ العباد تكرُّماً ... وإنَّا لنرجُو فَوْقَ ذلك مَظْهَرا

فقال له النبى ﷺ: إلى أين يا أبا ليلى؟، فقال:

إلى الجنة! فقال: نعم إن شاء الله!.

ولا خيرَ فى حِلْم إذا لم تكن لَهُ ... بوادرُ تَحمى صفْوهُ أنْ يُكَدَّراَ

ولا خيرَ فى جهل إذا لم يكن لَهُ ... حَلِيمُ إذاَ ما أوردَ الأمْرَ أصدراَ

فقال رسول الله ﷺ: لا يفضض الله فاك!... فكان من أحسن الناس ثغراً؛ وكان إذا سقطت له ثنية نبتت، وكان فوه كالبدر المتهلل يتلألأ ويبرق[1].

فصار بيت النابغة الأخير إسلامياً حينما اتفق مع النظرة الإسلامية من ناحية الفهم والمعنى.

لقد ظهر هذا الاتجاه الأدبى السليم الملتزم لأول مرة فى كلام الرسول عليه السلام، وانتظم أصنافاً وأنواعاً أدبية متباينة من الكلام الأدبى، واتبعه فى ذلك الصحابة رضى الله عنهم، ثم الذين أتوا من بعدهم. وجاء الأدب مطوراً ومتنوعاً على أيديهم، ملتزمين بالسمات السليمة والمقبوسة من المنهج القرآنى للبيان الأدبى، وبيان الرسول عليه السلام، وبذلك كان كل لون من الأدب الجاهلى يقابله لون من الأدب الإسلامى. وكانت نظرة الإسلام إلى الأدب الجاهلى نظرة سديدة، فالأدب الذى نأى عن الفحش والانحراف والفساد؛ أبقى عليه الإسلام ولم ينفه، أو يتجهم

---

(١) خزانة الأدب ولبّ لباب لسان العرب للبغدادى، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون جـ٣ صـ١٦٩. ١٧٠ مكتبة الخانجى بالقاهرة.

فى وجهه. وما خالف المعانى الإسلامية؛ لم يقبله، فكانت نظرته إلى الأدب الجاهلى كنظرته إلى الناس... منهم الأخيار، ومنهم الأشرار، قال ﷺ: الناس معادن كمعادن الذهب والفضة، خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا"[١]. ولذا.. نجد الصحابة - رضى الله عنهم - عنُوا بالشعر الجاهلى ليعينهم فى فهم معانى ألفاظ القرآن الكريم.

والدليل على ذلك... ما قاله عمر بن الخطاب - رضى الله عنه: إذا استغلق عليكم شئ من معانى القرآن، فاطلبوه فى الشعر، فإنه عربى، ويروى أنه اجتمع ببعض أولاد "هرم بن سنان" الذى مدحه شاعر الجاهلية "زهير بن أبى سلمى"، فاستنشدهم "عمر بن الخطاب" بعض مدائح زهير فى أبيهم، فأنشدوه، فقال سيدنا عمر رضى الله عنه: "إن كان لا يحسن فيكم القول" قال بعض أولاد هرم: "ونحن والله إن كنا لنحسن له العطاء"، فقال عمر رضى الله عنه: "قد ذهب ما أعطيتموه، وبقى ما أعطاكم"[٢]. وكذلك اجتمع عمر - رضى الله عنه - بالشاعر "متمم بن نويرة" واستنشده رثاءه فى أخيه "مالك بن نويرة" الذى قتله خالد بن الوليد - رضى الله عنه - قائد الجيش الإسلامى، فأنشده قائلاً:

وكـنا كندمانـى جذيمـة حقـبة ... مـن الدهـر حتى قيل لـن يتـصدع

فتأثر به عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - وقال: "لوددت أحسن الشعر، فأرثى أخى زيداً بمثل ما رثيت به أخاك"، فقال متمم: لو أن أخى مات على ما مات عليه أخوك ما رثيته، فقال عمر: "ما عزّانى أحد عن أخى بمثل ما عزّانى به متمم" فهذه أدلة على أن الإسلام لم يطمس كل الأشعار الجاهلية ولم يَنْفِها، إنما نَفَى وطمس الأدب الكاذب الفاسد الذى يحمل روح المجون والعبث واللهو وإذاعة الرذيلة ونشر الفواحش.. فمادامت للأدب حدود إسلامية تنبع مع المنهل العذب، والنبع الصافى (القرآن الكريم، والسنة النبوية، وأدب الصحابة رضى الله عنهم) عاش

---

(١) صحيح مسلم.
(٢) مختار الأغانى لابن منظور جـ٥ بتصرف.

الأدب يؤدى دوره الملتزم بهذه الحدود الإسلامية. والإسلام لم يعارض الأدب، بيد أن ميزة الأدب الإسلامى هى خدمة الحياة بالإصلاح والبناء، وليس الجرى وراء تحقيق مآرب الحياة التافهة، وذلك بمساعدتها بوسائل العربدة، كما نجدها فى الأدب الجاهلى... فالحرية فى الإسلام حرية مقيدة ومضبوطة بضوابط نابعة من القرآن والسنة، فلا يقبل الإسلام حرية فيها لذة واستمتاع لشخص على حساب شخص آخر، أو هدم لمبدأ، أو إفساد فى الأرض.

وكان رسول الله ﷺ يقدر الأدب النزيه، وجاء أدبه – عليه الصلاة والسلام – مثلاً لهذا الأدب، وانتظم ألواناً وضروباً منه. لقد كان ﷺأبلغ الناس وأملكهم للفصاحة والبيان، فقد ولد فى قريش، وأُرضع فى بنى سعد، وهما قبيلتان من أفصح القبائل العربية، وكذلك كان الصحابة يتناشدون أشعار الجاهلية وأخبارها.

قال (جابر بن سمرة): جالست رسول الله ﷺأكثر من مائة مرة، فكان أصحابه يتناشدون الأشعار بالمسجد، وأشياء من أمر الجاهلية، فربما تبسم رسول الله ﷺ[(١)]. وكان الرسول عليه السلام يستعذب بعض الشعر، وكثيراً ما يستنشد الصحابة الشعر، ولو كان شعر أعدائه (كأمية بن أبى الصلت)، كما يقول (الشريد بن سويد الثقفى): استنشدنى النبى – عليه الصلاة والسلام – شعر (أمية بن أبى الصلت)، فأنشدته، وهو يقول: هيه، هيه، حتى بلغت مائة قافية[(٢)].

كما أن رسول الله – عليه الصلاة والسلام – استنشد أبا بكر – رضى الله عنه – شعر (حسان بن ثابت) يوم فتح مكة، وقد دخلها من (كداء)، وكان (حسان) قد هجا أبا سفيان، وبشر النبى ﷺ بفتح مكة، وأنه سيدخلها من هذا المكان، فلما تحقق

---

(١) خزانة الأدب لابن حجة الحموى، والمزهر للسيوطى، والشعر الجاهلى بين الرواية والتدوين للمؤلف صـ١٠٠ مطبعة الأمانة بالقاهرة.

(٢) الأدب المفرد للبخارى صـ١٢٧ وطبقات الشعراء لابن سلام الجمحى صـ١٧ ط دار الباز بمكة المكرمة. والشعر الجاهلى بين الرواية والتدوين للمؤلف صـ٩٨ مطبعة الأمانة بالقاهرة. والأدب الإسلامى وصلته بالحياة، تأليف محمد الرابع الحسنى الندوى صـ٣٢ دار الصحوة بالقاهرة الطبعة الأولى سنة ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م.

له ذلك؛ قال – عليه الصلاة والسلام – لأبى بكر – رضى الله عنه – أنشدنى بعض أبيات (حسان). ويعنى قوله:

عدمنا خيلنا إن لم تروها تثير النقع موعدها كداء[1]

وكان أبو بكر – رضى الله عنه – نسابة، راوية للشعر الجاهلى، وكثيراً ما كان يتمثل به فى خطبه، وليس أدل على ذلك من قول الرسول – عليه الصلاة والسلام – للشاعر (حسان بن ثابت)، عندما قال له: كيف نهجوهم (يعنى قريشاً) وأنا منهم؟، فقال حسان: (يا رسول الله إنى أسلك منهم كما تسل الشعرة من العجين)، فقال – عليه الصلاة والسلام-: "عليك بأبى بكر، فإنه أعلم الناس بأنساب العرب". يقول الجاحظ: وكان أبو بكر – رحمه الله – أنسب هذه الأمة ثم عمر، ثم جبير بن مطعم، ثم سعيد بن المسيب، ثم محمد بن سعيد بن المسيب[2]. وكان عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – لا يكاد يعرض له أمر، إلا أنشد فيه بيت شعر[3]. وكان عبد الله بن عباس – رضى الله عنهما – عالماً بالشعر، متذوقاً له، ومناظرته لنافع بن الأزرق شهيرة معروفة، وهو الذى يقول: (الشعر ديوان العرب، فإذا خفى علينا الحرف من القرآن الذى أنزله الله بلغة العرب؛ رجعنا إلى ديوانها؛ فالتمسنا معرفة ذلك منه)، ثم أخرج عن طريق عكرمة عن ابن عباس قال: إذا سألتمونى عن غريب القرآن، فالتمسوه فى الشعر، فإن الشعر ديوان العرب[4]. يقول نافع لابن عباس: أخبرنى عن قول الله تعالى: "عن اليمين وعن الشمال عزين". قال: العزون حلق الرقاق، قال: هل تعرف العرب ذلك؟. قال: نعم أما سمعت (عبيد بن الأبرص) وهو يقول:

---

(١) الديوان.

(٢) البيان والتبيين للجاحظ جـ١ صـ٣١٨ تحقيق وشرح الشيخ عبد السلام هارون ط الخامسة سنة ١٤٠٥هـ، سنة ١٩٨٥م مكتبة الخانجى بالقاهرة.

(٣) طبقات بن سلام.

(٤) الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى صـ٦ ط الجهاز المركزى سنة ١٣٩٧هـ.

فجـاءوا يهـرعون إلـيه حتـى يكونـوا حـول منـبره عـزينا[1]

قال: فأخبرني عن قوله تعالى: "وابتغوا إليه الوسيلة" قال: الوسيلة الحاجة، قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم، أما سمعت عنترة وهو يقول:

إن الـرِّجَال لهـم إلـيكِ وسـيلةٌ إن يأخـذوكِ تكحّلِـي وتخضَّبِي[2]

قال: أخبرني عن قوله: "وريشاً". قال: الريش (المال). قال: وهل تعرف العرب ذلك؟، قال: نعم، أما سمعت الشاعر يقول:

فَرِشْنِي بخيرٍ طَالَ مـا قـد بَرَيْتَنِـي وخيرُ الَموالِي من يَرِيشُ ولا يبرى[3]

قال: أخبرني عن قوله تعالى: (وَفُومِهاَ). قال: (الحنطة). قال: وهل تعرف العرب ذلك؟، قال نعم، أما سمعت قول أبي محجن الثقفي:

قـد كـنتُ أحسبُنِي كَأَغْنَى واحـدٍ قَـدِمَ المدينَةَ عـن زِرَاعـةِ فُـومِ[4]

قال: أخبرني عن قوله تعالى: "والقمر إذا اتسق" قال: اتساقه اجتماعه.

قال: وهل تعرف العرب ذلك؟، قال: نعم، أما سمعت قول طرفة بن العبد:

وإن لـنا قَلائـصاً تعانقـا مـستوثقاتٍ لم يجـدن سَـائقاً

قال: أخبرني عن قوله تعالى: "بالبأساء والضراء"، قال: البأساء (الخصب) والضراء: الجدب) قال: وهل تعرف العرب ذلك؟. قال: نعم، أما سمعت قول زيد بن عمرو:

إن الإلـهَ عزيـزُ واسـعُ حَكَـمٌ بكفّـه الـضُرُّ والبأسَـاءُ والـنعمُ[5]

---

(١) ذاته جـ٩ صـ٢٠٦.
(٢) ذاته صـ٢٠٧.
(٣) ذاته.
(٤) ذاته صـ٢٠١
(٥) ذاته صـ١٦٢.

قال: أخبرنى عن قوله تعالى: "وأكدى"، قال: كده بمنه. قال: وهل تعرف العرب ذلك؟، قال نعم. أما سمعت قول الشاعر:

أعطـى قلـيلا، ثـم أكـدى بمـنه ... ومن ينشر المعروف فى الناس يحمد[1]

وقال أخبرنى عن قوله تعالى: "مخمصة". قال: "مجاعة" أما سمعت قول الأعشى[2]:

تبيتونَ فى المشْتَاءِ مَلأَى بطونُكُمْ ... وجارَاتِكُمْ سُغْبٌ يَبِتْنَ خَمائِصا

وسئل ابن عباس عن قوله تعالى: "يوم يكشف عن ساق". قال: تقول العرب للرجل إذا وقع فى أمر عظيم فظيع يحتاج إلى الجد ومقاساة الشدة: (شمر عن ساقك)، فهو تعبير عربى أصيل، أما سمعتم القائل:

سن لنا قومك ضرب الأعناق ... وقامت الحرب بنا على ساق

وأنشد أبو عبيدة:

فإن شمرت لك عن ساقها ... فدقها ربيع ولا تسأم

وقال جرير:

ألا ربّ سَاهِى الطّرف من آلِ مَازنٍ ... إذا شمرّت عن سَاقِهَا الحرب شَمَّرا

على هذا الأساس فهم ابن عباس – وهو ترجمان القرآن – الآيات، وتبعه العلماء من الصحابة والتابعين، وما نعرف إلا هذا التفسير للوحى الكريم[3] وسئل عن

---

(١) ذاته صـ٢١٤.

(٢) ذاته صـ٢٢٧.

(٣) السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث للشيخ محمد الغزالى صـ١٢٦ دار الشروق سنة ١٤٠٩هـ سنة ١٩٨٩م الأولى.

قوله تعالى: "لا فيها غولٌ"، قال: ليس فيها نتن، ولا كراهية كخمر الدنيا، أما سمعتم قول امرئ القيس:

رب كأس شربت لا غول فيها   وسقيت النديم منها مزاجا[1]

قال: أخبرنى عن قوله تعالى: "فيطمع الذى فى قلبه مرض". قال: الفجور والزنا. قال وهل تعرف العرب ذلك؟، قال: أما سمعت قول الأعشى:

حافظ للفرج راض بالتقى   ليس ممن قلبه فيه مرض[2]

قال: أخبرنى عن قوله تعالى: "أغنى وأقنى". قال: أغنى من الفقر، وأقنى من الغنى، أما سمعت قول عنترة العبسى:

فاقنى حياءك – لا أبالك – واعلمى   أنى امرؤ سأموت إن لم أقتل[3]

قال: أخبرنى عن قوله تعالى: "لتنوء بالعصبة"، قال: (لتثقل)، أما سمعت قول امرئ القيس:

تمشى فتثقلها عجيزتها   مشى الضعيف ينوء بالوسق[4]

قال: أخبرنى عن قوله تعالى: "جابوا الصخر"، قال: نقبوا الحجارة فى الجبال، فاتخذوها بيوتاً، أما سمعت قول أمية[5]:

وشق أبصارنا كيما نعيش بها   وجاب للسمع أصماخاً وآذانا

إلى غير ذلك من المسائل التى يعج بها الكتاب، فراجعه إن شئت.

* * *

(١) الإتقان ١/ ٢١٠ مطابع دار الشعب بالقاهرة.

(٢) ذاته.

(٣) الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى ١/ ٢٢٤.

(٤) ذاته صـ٢٢٥.

(٥) ذاته صـ٢٢٦. والشعر بين الرواية والتدوين للمؤلف صـ١٠٤. الطبعة الثانية مطبعة الأمانة.

فى الغَزَل.. لحسان بن ثابت – رضى الله عنه

الحب نفحة ربانية لا يكاد يخلو من تنسمها إنسان، وأجمل ما فى الحب أن يكون متبادلاً، والمأساة فيه ألا يَوَدَّك مَنْ تهواه كقول الشاعر:

جننا بليلى وهى جنت بغيرنا وأخرى بنا مجنونة ما نريدها

فحب الجمال غريزة فى الإنسان، ومن طبائع البشر فهو نجوى الروح، وحديث القلب، والحب يشذِّب النفس ويهذب الروح، ويجعل الإنسان رقيق المشاعر، مرهف الحسّ، ولذلك كانت صفة الحب من صفات المؤمنين الأتقياء والمسلمين الأصفياء، يقول تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾. وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[1].

فالحب من شيمة البشر، يستوى فى ذلك العالم والجاهل والصالح والطالح. ولذلك ترى الشاعر "حسان بن ثابت "رضى الله عنه وهو من الشعراء المخضرمين، الذين عاشوا فى الجاهلية والإسلام وإن كان شعره قد جاء قليلاً فى الغزل حتى فى جاهليته.. لكنه ما زال يتغزل ويذكر الأحبة والأيام الخوالى، وما يعتاده من شوق وحنين، فهل كان "حسان" صادقاً فى هذا؟! على الرغم من شيخوخته وتقدم سنه، وهل كان يحسّ بحرارة العاطفة فى هذه السن؟ إنه لا أحد يستطيع أن يحكم على كبار السن بموت القلب أو العاطفة، مادامت الحياة فيها متسع لذلك، فكم من

---

(١) سورة آل عمران، الآية ٣١.

حب وذكريات لهؤلاء الشيوخ لأيام الهوى والعشق والغرام ومرح الشباب "ظلت هذه الذكريات تطوّح بقلوبهم، وتعصف بأرواحهم حتى واراهم التراب، وكذلك كان سيدنا "حسان بن ثابت" رضى الله عنه – فإن الدارس لشعره يجد فى بعض غزله الإسلامى أثار ذلك الحب الدفين شاخصة، وماثلة أمام عينيك، كما أن الدارس لشعره يحسّ ويشعر بما يخالطه من متعة حين يسترجع أطيافه، ويتملى صوره، كما تلمح فى بعض شعره الآخر غزلاً تقليديًا يسوقه فى مطالع شعره، وتلك عادة لديهم جميعاً فى العصر الجاهلى حيث إنهم كانوا يستهلون قصائدهم بالغزل، والوقوف على الأطلال، والدِّمَن البوالى، حتى ولو لم تكن لأحدهم محبوبة وذلك من بناء القصيدة الجاهلية، "فحسان بن ثابت" رضى الله عنه يسير على هذا المنهج الجاهلى، مع التخلى عن ذكر المشاهد والديار الدَّارسة، التى كانت تتردد فى شعره الجاهلى من مثل قوله:

انظر خليلى ببطن جلّق هل	تؤنس دون البقاء من أحد
من دون بصرى وخلفها جبل الثلج	عليه السحاب كالقدر[1]

وهو فيه أيضاً يتبع الطريقة الشائعة يوم ذاك فى عصره حين يقتضب حديث الغزل، متنقلاً منه إلى غرضه الأصلى بقوله: "دَع ذا"، دَعْ عنك ذا" ، "دع ذكرى دارٍ" وغير ذلك.

أما أثر الشيخوخة فظهر جليًا فى قلة ما صار إليه ذلك الغزل من صدق العاطفة وطول النفس.

النص..

تبلت فؤادك فى المنام خريدة	تسقى الضجيج ببارد بسام
كالمسك تخلطه بماء سحابة	أو عاتق كدم الذبيح مدام

(١) الديوان صـ١٣١.

نفـــج الحقيـــبة بوصـــها متنـــضد | بلـــهاء غـــير وشـــيكة الأقـــسام
بنـــيت علـــى قطـــن أجـــم كأنـــه | فـــضلا إذا قعـــدت مـــداك رخـــام
وتكـــاد تكـــسل أن تجـــئ فراشـــها | فـــى لـــين خـــر عـــبة وحـــسن قـــوام
أمـــا الـــنهار فمـــا أفـــتر ذكـــرها | والللـــيل توزعنـــى بهـــا أحلامـــى
أقـــسمت أنـــساها وأتـــرك ذكـــرها | حتـــى تغيب فـــى الـــضريح عظامـــى

فانظر كيف ترى الجمال فى قوله حين يتحدث عن محبوبته بقوله:

"الدُّرة المكنونة، الحسناء، الخفيضة الصوت"

والتى أورثته سقماً حين زارته فى المنام، والتى تسقى الضجيج ريقاً بارداً من ثغرها البسّام وهو كالمسك مخلوطاً بماء السماء، أو الخمر المعتقة الحمراء.. ومع ذلك فهى ضخمة الأرداف، سادة لا تصرع إلى الأقسام، ثم نراه يشبهها إذا ما قعدت متخففة من ثيابها وقد اكتنز لحماً وشحما مع استدارته ونعومته بمداك يسحق فيه الطيب.

- من الرخام كسول رخصة، وبيضاء جميلة فى اعتدال القوام وحسنه وجماله، وهو لا يفتر عن ذكرها نهارا فإذا ما جن ليله أغرته بها الأحلام، وقد أقسم ألا ينساها، ولا يترك ذكراها حتى تغيب فى القبر عظامه.

وتحضرنى هنا طرفة من الطرائف وردت فى شأن هذه الأبيات وهى: قيل إن معاوية بن أبى سفيان - رضى الله عنه - وصلته وشاية من الوشايات وهى "أن عبد الله بن عباس - رضى الله عنهما - يشرب ويسمع الغناء!! فذهب إليه على غير موعد معه ثم دخل داره دون إذن منه حتى إذا ما دخل داره وجد جارية له تصرح بالغناء وهو يهز رأسه طرباً، وبيده كأس الشراب فصاح به "معاوية" قائلاً له: "ما هذا الذى أراه يا ابن عم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال وما أنكرت مما تراه؟ قال: أتسمع الغناء؟ قال إنها جاريتى وتغنينى وحدى، قال: وما اهتزاز الرأس هذا؟ قال: أريحية أجدها عند سماع الشعر، فقال معاوية: وأى شعر تسمعه "تبلت فؤادك

بالمنام خريدة "قال أتدرى شعر مَنْ هذا؟ وفى أى يوم قاله إنه شعر "حسان من ثابت. – رضى الله عنه – وشاعر الرسول عليه السلام – وقد قاله يوم بدر.

قال: وما هذا الذى فى يديك؟ قال خذ فاشرب تعرف إنه عسل ممزوج بكافور، قال: معاوية: وذلك ظنى بك يا عم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ثم اعتذر "معاوية" وانصرف.

وقد وجه"حسان بن ثابت – رضى الله عنه – اهتمامه البالغ بوصف محاسنها الجسدية وأتى فى هذا الوصف بما لم يكن مألوفاً لديه فى قبل.

وإذا ما نظرنا بعين فاحصة، وبصر ثاقب، وذهن متقد، ودراسة متأنية لألفاظ ومعانى "حسان" فى الجاهلية والإسلام ترى أنه لم يأت بجديد فقوله فى بدر" يصف الريق والفم.

تبلت فؤادك فى المنام خريدة ... تسقى الضجيج ببارد بسام
كالمسك تخلطه بماء سحابة ... أو عاتق كدم الذبيح مدام

يشبه قوله الجاهلى:

كأن فاها ثغب بارد ... فى رصف تحت ظلال الغمام
شجت بصهباء لها سورة ... من بيت رأس عتقت فى الختام

وقوله فى بدر أيضا:

أما النهار فما أفتر ذكرها ... والليل توزعنى بها أحلامى

قريب من قوله:

جنية أرقنى طيفها ... تذهب صبحاً وترى فى المنام

وقوله فى غزوة الطائف:

لها عين كحلاء المدامع مطفل ... تراعى غزالاً يرتعى بالخمائل

من قوله الجاهلى:

هــل هــى إلا ظبــية مطفــل　　　مألفهــا الــسدر بتعفــى بــرام

تزجــى غــزالاً فاتــراً طــرقه　　　مقــارب الخطــو ضـعيف الـبغام

وقوله فى أحد:

فلــم يـبق إلا مــوقد الــنار حــوله　　　رواكــد أمــثال الحمــام وقــوع

يلتقى بقوله:

خــلاء المــبادى مايــه غــير ركــد　　　ثــلاث كأمــثال الحمــائم جــثم

والسبب فى ذلك أن البيئة والطبيعة الملهمة والتى يستمد منها الشاعر معانيه، ويلهم خياله الخصب لم تتغير، كما أن البيئة الاجتماعية لم تكد تتأثر بما جاء به الإسلام فى هذه السرعة الخاطفة، أما الجوانب النفسية والعاطفية فى حياة الإنسان وهى الباعثة على التشبيب والغزل فإنها أقل من غيرها فى التحول، والتغيير، وأنت تلمس هذا التشابه العاطفى فى "شعر حسان "رضى الله عنه – أكثر من غيره، حيث إنه لم يتأثر كثيراً بالنزعات الجاهلية.

ولذلك لا تجد فارقاً كبيراً بين غزله فى الجاهلية والإسلام ولعل الغزوات والحروب التى كان يعيش فيها المسلمون فينصرون على أعدائهم أضافت بعض القوة عليه، وأرجعته إلى الحياة المرحة الضاحكة، فتغنى بذلك مثلما يغنى أهل الحماسة والحب.

"حسان بن ثابت الأنصارى"

هو حسان بن ثابت بن المنذر الأنصارى، ويكنى أبا الوليد، وأبا الحسام وأبا عبد الرحمن، وهو من بنى النجار، ثم من الخزرج، ينتهى نسبه إلى قحطان، فهو إذا يمنى، ولد فى يثرب، ولم يذكر أحد من الرواة الأخيار سنة مولده، ونشأ فيها.. فهو إذاً من أهل المدَر، وعلى نشأته الحضرية، كان متأثرا بالحياة البدوية، ويظهر ذلك جليا فى شعره.. فتراه حينئذ فيه رقة الحضر، وحضريّاً فيه خشونة البداوة، وقساوتها، وخاصة الشعر الذى أنشده فى جاهليته، وأمه (الفريعة) بنت خنس من بنى النجار، والفريعة بالفاء والعين المهملتين مصغر (فرعه) بالتحريك، وهى القملة الكبيرة(1).

وفى الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى (وأمه الفريعة ابنة خالد بن قيس بن لوزان بن عبدود بن ثعلبة بن الخزرج)، وهو جاهلى إسلامى متقدم فى الإسلام، إلا أنه لم يشهد مع النبى - ﷺ - مشهداً، لأنه كان جبانا، وعلى أنه كان مشهوراً بجبنه، فلم يناصر الدين بسيفه، وإنما نصره بلسانه، وكانت له ناصية يسد لها ما بين عينيه، وكان يضرب بلسانه روثة أنفه من طوله، ويقول: ما يسرنى به مقول أحد من العرب، والله لو وضعته على شعر لحلقه، أو على صخر لفلقه، وعاش فى الجاهلية ستين سنة، وفى الإسلام ستين سنة، وهو من المخضرمين. مات فى خلافة معاوية سنة ٥٤ للهجرة، وكف بصره فى آخر عمره.

---

(١) خزانة الأدب للبغدادى ج ١ ص ٢٢٧ وما بعدها تحقيق عبد السلام هارون ط الهيئة العامة للكتاب ١٩٧٩م.

ولما صدع النبى - ﷺ - بدعوته لحقه أذى كثير من أهل مكة، فهاجر إلى المدينة. ولم يكفّ أعداؤه عن تعبيره وهجائه، فأذن لحسان بن ثابت أن يعارضهم بمثل قولهم، فكان يهجوهم بأقوال أشد عليهم من وقع النبل، ومدح محمداً - عليه الصلاة والسلام - بقصائد غراء، جاءت غاية فى الحسن، والروعة والجمال، وكان يدلع لسانه ويقول: والله لو وضعته على شعر لحلقه، أو على صخر لفلقه، وله شعر كثير فى المدح والفخر والوصف والرثاء والهجاء، فمن قوله يفتخر:

ولقد يعلم من حَاربنا ... أننا ننفع قدما ونضُر

صبر للموت إن حل بنا ... صادقُوا البأس عضاريف فخر

ومن قوله يمدح الأنصار:

قومُ إذا حاربوُا ضَروّا عدوهُمُ ... أَوْ حاولُوا النّفْع فى أشياعهم نَفَعُوا

سجيةٌ تلّك منهم غير مُحدّثةٍ ... إنّ الخلائق فاعلم شرّها البدعُ

وكان حسان بن ثابت - رضى الله عنه - يفد على ملوك غسان بالشام، وكان يمتدحهم. ومن جيد شعره فيهم:

أولاد جفنة حول قبر أبيهم ... قبر ابن جارية الكريم المفضل

يسقون من ورد البريص عليهم ... يروى يصفق بالرحيق السلسل

يغشون حتى ما تهر كلابهم ... لا يسألون عن السداد المقبل

ولما سار (جبلة بن الأيهم) إلى بلاد الروم، ورد على ملك الروم رسول معاوية فسأله جبلة عن حسان، فقال له: شيخ كبير قد عمى، فدفع إليه ألف دينار، وقال ادفعها إلى حسان، قال: فلما قدمت المدينة، ودخلت مسجد رسول الله ﷺ، رأيت فيه حسان بن ثابت، فقلت له: صديقك (جبلة) يقرأ عليك السلام. قال حسان: فهات ما معك، فقلت يا أبا الوليد كيف علمت؟ قال ما جاءتنى منه رسالة قط إلا ومعها شىء.

وولد لحسان – رضى الله عنه – عبد الرحمن بن حسان من أخت مارية القبطية: أم إبراهيم بن رسول الله ﷺ وكانت تسمى (سرين) وكان عبد الرحمن بن حسان شاعراً، وكان له ابن يقال له (سعيد بن عبد الرحمن بن حسان) وكانت لحسان بنت شاعرة. وأُرق حسان ذات ليلة؛ فعَنَّ له الشعر، فقال:

متاريك أذناب الأمور إذا اعترت   أخذنا الفروع واجتثثنا أصولها

ثم أجبل فلم يجد شيئا يقوله وصعب عليه إنشاد الشعر بعد هذا البيت، فقالت له ابنته كأنك قد أجبلت يا أبه؟! قال: أجل. قالت: فهل لك أن أجيز عنك؟. وقال: وهل عندك ذلك؟؛ قالت: نعم. قال: فافعلى. فقالت:

مقاويل بالمعروف خرس عن الخنا   كرام يعاطون العشيرة سولها

فحمى الشيخ فقال:

وقافية مثل السنان رزئتها   تناولت من جو السماء نزولها

فقالت:

يراها الذى لا ينطق الشعر عنده   ويعجر عن أمثالها أن يقولها

وأتعرض ولد حسان، فلم يبق له عقب(1).

ولما ظهر الإسلام، وهاجر النبى – عليه الصلاة والسلام – إلى يثرب؛ أسلمت الأوس والخزرج، وأسلم حسان، وعلى الرغم من أنه كان جبانا؛ فلم يناصر الدين

---

(1) راجع فى ترجمته: الشعر والشعراء لابن قتيبة الدينورى ط صـ٢٢٣ وما بعدها وتوزيع دار الثقافة – بيروت – لبنان سنة ١٩٦٤م وتاريخ الآداب العربية تحقيق الدكتور/ على نجيب عطوى المجلد الأول صـ ١٤٩ وما بعدها نشر مؤسسة عز الدين ط الأول ١٤٠٥ هـ-١٩٨٥م وطبقات ابن سلام ١٧٩ وما بعدها وشرح شواهد المعنى ١١٤ والأغانى جـ٤ صـ٢ وما بعدها والموشح صـ٦٠ ومعجم الشعراء للمرزبانى وتهذيب ابن حجر وتاريخ آداب اللغة العربية لكارل بروكلمان. ومقدمة ديوانه ط دار صادر – بيروت – لبنان بدون تاريخ.

بسيفه، وإنما نصره بلسانه، وبذلك صار شاعر الرسول - ﷺ - وكان عليه الصلاة والسلام - يقول له: اهجهم وروح القدس معك، وكان أبو بكر - رضى الله عنه - يدله على معايب القوم ومثالبهم، وعلى من ينبغى هجوها من النساء، شعر حسان فى الجاهلية أجود من شعره فى الإسلام يقول (الأصمعى): شعر حسان فى الجاهلية من أجود الشعر، فقطع متنه الإسلام "وقيل لحسان" ألان شعرك أو هرم فى الإسلام يا أبا الحسام، فقال: يا ابن أخى إن الإسلام يحجز عن الكذب، أو يمنع الكذب، وإن الشعر يزينه الكذب، يعنى بذلك ما يدخل فى الشعر من المغالاة، وتجاوز الحقيقة، ومع هذا... فنحن نرى أن شعر حسان - رضى الله عنه - جاء قويا فى الإسلام، وكذلك استطاع أن يصور العصر الإسلامى زمن النبى - عليه الصلاة والسلام - والصحابة - رضوان الله عليهم أجمعين - أصدق تصوير، بما فيه من مناضلة بين الإسلام والشرك، كما أنه يعطينا صورة واضحة عن تهاجى الأنصار والقريشيين، وعما فى هذا الهجاء من فحش وإقذاع، وهو لون جديد دخل بشعر حسان الآداب العربية، فنجد فيه ذلك اللون من الشعر السياسى المسنود إلى العقيدة، هو بذلك مهد الطريق إلى الشعر الإسلامى الذى ينافح عن العقيدة، وينصر الدعوة، ويدعو إلى الفضيلة ومكارم الأخلاق. يقول أبو عبيدة "فضل حسان الشعراء بثلاث: كان شاعر الأنصار فى الجاهلية، وشاعر النبى فى النبوة وشاعر اليمن كلها فى الإسلام، وشهد له الخطيئة فقال: أبلغوا الأنصار أن شاعرهم أشهر العرب، حيث يقول:

يغشون حتى ما تهر كلابهم ... ولا يسألون عن السواد المقبل

كما شهد له النابغة فى الجاهلية. وقال له: إنك لشاعر. كل هذا يدل على أنه كان شاعرا فحلا مجيداً، يتصرف فى فنون الشعر، وقد عرفت ديباجته بنقاوتها وجزالتها، وسهولة ألفاظها، وقد أجمع الرواة على أنه أشعر أهل المدر.

يقول حسان بن ثابت يمدح النبى ﷺ، ويهجو أبا سفيان قبل إسلام يوم فتح مكة.

عَفتَ ذاتُ الأصابع، فالجِواءُ ... إلى عذراء منزلها خلاء

دِيَارٌ مَن بنى الحَسْحَاسِ قفَرٌ ... تَعْفّيها الرَّواسُ والسّمَاءُ

وكانت لا يزال بها أنيسٌ ... خِلالَ مُروجِها نَعَمٌ وَشَاءُ

فَدعْ هذا ولكن من لطيْف ... يؤرّقنى إذا ذهب العِشاءُ

لشعثاءَ التى قد تيمته ... فليس لقَلبه منها شِفاءَ

كأن سبيئة من بيت رأسٍ ... يكونُ مزاجُها عَسَلٌ وَمَاءُ

على أنيابها أو طعمُ غضٌ ... من التَفاح هَصرّهُ الجناءُ

إذا ما الأشرباتُ ذُكِرْنَ يوماً ... فهنّ لطيب الراَح الفِداءُ

نوّليها المّلامة إن ألمنا ... إذا ما كان مَغْثُ أوْ لِحاءُ

ونشر بها فتتركنا ملوكاً ... وأسْداً ما ينهنهنا اللّقاءُ

عدمنا خيلنا إن لم تروها ... تُثِير النَّقْعَ موعدها كَداَء

يبارين الأسنة مصعدات ... على أكتافها الأسَلُ الظّمَاءُ

تظل جيادُنا متمطّراتٍ ... تلطّمهُنَ بالخمرَ النِّسَاءُ

فإمّا تعرضوا عنا اعتمرناَ ... وكان الفتح وانكشَف الغطاءُ

وإلاّ فاصبروا لِجَلاّدِ يومٍ ... يعزُّ الله فيه من يَشَاءُ

وجبريلُ أمين الله فينا ... وروُحُ القدس ليس له كَفاءُ

وقال الله قد أرسلت عبداً ... يقولُ الحقَّ إن نفَع البَلاء

شهدت به وقومى صدقوهُ ... فقلتمْ: لا نقوم ولا نشاء!

وقال الله: قد سيرت جندا ... هم الأنصار عرضها اللُّقاءُ

لنا فى كل يوم من معد ... سباء أو قتال أو هجاءُ

فنحكم بالقوافى من هجانا ... ونضربُ حين تختلطُ الدّماءُ

ألا أبلغ أبا سفيان عنى — فأنت مجوف نخبُ هواءُ

بأن سيوفنا تركتك عبداً — وعبد الدارِ سادتُها الإمَاءُ

هجوت محمداً فأجبتُ عنه — وعند الله فى ذاكَ الجزاءُ

أتهجوه ولَسْت له بكفء — فشركما لخيرِ كُمَا الفِداءُ

هجوت مباركا برا حنيفاً — أمينَ الله شيمتهُ الوَفَاءُ

فمن يهجو رسولَ اللهِ منكم — ويمدحُهُ وينصرْهُ سواءُ

فإن أبى ووالدَهُ وعَرْضِى — لِعرضِ محمد منكم وقَاءُ

فإمّا تثقفن بنى لؤى — جُذيمة إن قتلهم شفاءُ

أولئكَ معشرٌ نُصروا علينَا — فَفى أظفارنا منهم دماءُ

وحلفُ الحارث ابنُ أبى ضرار — وحلف قريظة منا برَاءُ

لِسَانِي صارِمٌ لا عيبَ فيه — وبحرِىَ لا تكدّرهُ الدِلاءُ[1]

(١) الديوان ص ٧، ٨، ٩ دار صادر – بيروت لبنان. بدون تاريخ، وتهذيب سيرة ابن هشام – تحقيق عبد السلام هارون. مكتبة التوعية الإسلامية صـ٢٩٥ وما بعدها. ط الثالث سنة ١٣٩٦هـ سنة ١٩٧٦م.